عنوان المحاضرة – نظريات عن اعجاز القران في دراسات المتقدمين .

.Lecture Title – Theories on the Miracles of the Qur'an in applicant studies

هناك للعلماء . سلفاً وخلفاً . بحوث ودراسات وافية حول مسألة إعجاز القرآن ، مُنذ مطالع القرون الأُولى فإلى هذا الدور ، ولهم كلمات ومقالات ضافية عن وجه هذا الإعجاز المُتحدّي به من أَوّل يومه ، ولا يزال مُستمرّاً عِبر الخلود ولهذه الأبحاث والدراسات قيمتها ووزنها العلمي النظري في كلّ عصر وفي كلّ دور ، وأنّ الفضل يرجع إلى الأسبق ممّن فتح هذا الباب وأَسّس أساس هذا البنيان ، فكان مَن يأتي مِن بعد ، إنّما يجري على منواله ويضرب على ذات وتره ، مهما تغيّر اللون أو تنوّع الأُسلوب . ونحن نقدّم من آراء مَن سلف الأهمّ منها فالأهمّ ، ثُمّ نعقبها بطرف من آراء المتأخّرين ممّن قاربنا عصره ، وعلى أيّ تقدير ، فإنّ مساعيهم جميعاً مشكورة ، ومواقفهم في استنباط حقائق من الكتاب العزيز مقدّرة ، فلله درّهم وعليه أجرهم ، وإليك :

١ . رأي أبي سليمان البُستي :

يرى أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابي البُستي (١) (توفّي سنة ٣٨٨هـ) في رسالته الوجيزة التي وضعها في بيان إعجاز القرآن . ولعلّه أَسبق مِن توسّع في هذا البحث أفاد وأجاد . : أنّ الإعجاز قائم بنظمه ، ذلك المتّسق البديع ورصفه ، ذلك المؤتلف العجيب ، قد وُضعت كلّ كلمة في موضعها اللائق بدقّة فائقة ، ممّا يستدعي إحاطة شاملة تعوزها البشرية على الإطلاق ، الأمر الذي أبهر وأعجب .

قال : قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول وما وجدناهم بعدُ ، صَدَروا عن ريٍّ ؛ وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيّته ، فأمّا أن يكون قد نقبت في النفوس نقبة (٢) بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان بمِثله على حال ، فلا موضع لها ، والأمر في ذلك أَبين مِن أن نحتاج إلى أن نُدِلّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمرّ على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه ، وذلك أنّ النبي (صلّى الله عليه وآله) قد تحدّى العرب قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه ، وقد بقيَ (صلّى الله عليه وآله) يُطالبهم به مدّة عشرين سنة ، مُظهِراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مُسفِّهاً آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس ، وأُريقت المُهج ، وقُطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلّفوا هذه الأُمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السَهل الدَمِث من القول ، إلى الحَزِن الوعر من الفعل .

هذا مالا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لبّ ، وقد كان قومه قريش خاصّة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب ، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلّقون ، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل

واللَّدَد ، فقال سبحانه : {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } [الزخرف : ٥٨] ، وقال سبحانه : {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم : ٩٧] ، فكيف كان جوز ـ على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة ـ أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه وأن يضربوا عنه صَفحاً ، ولا يجوزوا الفلح والظفر فيه ، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه .

قال : وهذا ـ من وجوه ما قيل فيه ـ أبينُها دلالةً وأَيسرها مؤونةً ، وهو مُقنع لمَن تُنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه .

٢ ـ اختيار ابن عطيّة :

ولأبي محمّد عبد الحقّ بن غالب المحاربي الغرناطي ـ الفقيه المفسّر (توفّي سنة ٥٤٢هـ) ـ اختيار يشبه اختيار أبي سليمان البُستي ، ولعلّه اختزل منه ، ذَكره في مقدّمة تفسيره (المحرّر) ونقله الإمام بدر الدين الزركشي ، مع تصرّف واختصار .

قال ابن عطيّة : إنّ الذي عليه الجمهور والحذّاق ـ وهو الصحيح في نفسه ـ أنّ التحدّي إنّما وقع بنظمه ، وصحّة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ، ووجه إعجازه أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً ، وأحاط بالكلام كلّه علماً ، فإذا ترتّبت اللفظة من القرآن علم ـ بإحاطته ـ أيّ لفظة تصلح أن تلي الأُولى ، ويتبيّن المعنى دون المعنى ، ثُمّ كذلك من أَوّل القرآن إلى آخره .

والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بشراً لم يكن قطّ مُحيطاً ، فبهذا جاء نظم القرآن ، في الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر يَبطل قول مَن قال : إنّ العرب كان في قدرتها الإتيان بمِثله ، فلمّا جاءهم محمّد (صلّى الله عليه وآله) صُرفوا عن ذلك وعَجزوا عنه ! والصحيح أنّ الإتيان بمِثل القرآن لم يكن قطّ في قدرة أحد مِن المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر ، في أنّ الفصيح منهم يضع خطبةً أو قصيدةً يستفرغ فيها جهده ، ثُمّ لا يزال يُنقّها حولاً كاملاً ، ثُمّ تُعطى لأحد نظيره فيأخذها بقريحة خاصّة فيُبدّل فيها ويُنقّح ، ثُمّ لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله سبحانه لو نُزعت منه لفظة ، ثمّ أُدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد ، ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، وميز الكلام .

قال : وقامت الحجّة على العالم بالعرب ؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة وفطنة المعارضة كما قامت الحجّة في معجزة عيسى بالأطبّاء ، وفي معجزة موسى بالسَحَرة ، فإنّ الله تعالى إنّما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أَبرع ما يكون في زمن النبيّ الذي أراد إظهاره ، فكان السحر في مدّة موسى قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطبّ في زمن عيسى ، والفصاحة في مدّة محمّد (صلّى الله عليه وسلم) .

٣ ـ رأي عبد القاهر الجرجاني :

يرى الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني (تُوفّي سنة ٤٧٢هـ) ـ وهو الواضع الأوّل لأُسس عِلمَي المعاني والبيان ـ : أنّ إعجاز القرآن الذي تحدّى به العرب قائم بجانب فصاحته البالغة وبلاغته الخارقة ، وبأُسلوب بيانه ذلك البديع ، ممّا هو شأن نظم الكلام وتأليفه في ذلك التنافس والتلاؤم العجيب ، الأمر الذي لا يمسّ شيئاً من معاني القرآن وحِكَمِه وتشريعاته ، وهي كانت موجودةً من ذي قبل في كتب السالفين ، وقد أطلق لهم المعاني من أيّ نمط كانت .

وقد وضع كتابَيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) تمهيداً لبيان وجوه إعجاز القرآن لمن مارس أسرار هذا العلم . وثلّثهما برسالته (الشافية) التي خصّصها بالكلام حول إعجاز القرآن والإجابة على أسئلة دارت حول الموضوع . قال ـ في مقدّمة كتابه (دلائل الإعجاز) بعد أن أشاد بشأن النَظم في الكلام وتأليفه وتنسيقه ـ : وإذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا : إذا كانت هذه الأُمور الوجوه من التعلّق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى الصحّة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه ، ورأيناهم قد استعملوها وتصرّفوا فيها وكملوا بمعرفتها ، وكانت حقائق لا تتبدّل ولا يختلف بها الحال ، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ أو صفة لموصوف أو حالاً لذي حال أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل في كلام حقيقة هي خلاف حقيقته في كلام آخر .

فما هذا الإعجاز الذي تجدّد بالقرآن من عظيم مزيّة ، وباهر الفضل ، والعجيب من الوصف ، حتّى أعجز الخلق قاطبةً ، وحتّى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر ، وقيّد الخواطر والفكر ، حتّى خرست الشقاشق وعدم نطق الناطق ، وحتّى لم يجرِ لسان ، ولم يبنِ بيان ، ولم يساعد إمكان ، ولم ينقدح لأحد منهم زند ، ولم يمضِ له حدّ ، وحتّى أَسال الوادي عليهم عجزاً ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً ؟!

أَيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله ، ونردّه عن ضلاله ، وأن نطبّ لدائه ، ونزيل الفساد عن رائه ؟ فإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه (يريد نفس كتاب دلائل الإعجاز) ويستقصي التأمّل لما أودعناه .

وكرّ في الكتاب قائلاً : وإنّه كما يَفضل النظمُ النظمَ ، والتأليفُ التأليفَ ، والنسجُ النسجَ ، والصياغةُ الصياغةَ ، ثُمّ يعظُم الفضل ، وتكثر المزيّة ، حتّى يفوق الشيء نظيره ، والمجانس له درجات كثيرة ، وحتّى تتفاوت القيم التفاوت الشديد ، كذلك يفضل بعضُ الكلام بعضاً ، ويتقدّم منه الشيء الشيء ، ثُمّ يزداد من فضله ذلك ، ويترقّى منزلةً فوق منزلة ، ويعلو مرقباً بعد مَرْقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ، حتّى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتنحسر الظنون ، وتسقط القُوى ، وتستوي الأقدام في العجز (٦) .

ثم قال : واعلم أنّه لا سبيل إلى أن تعرف صحّة هذه الجملة حتّى يبلغ القول غايته ، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك ، وتصويره في نفسك ، وتقريره عندك ، إلاّ أنّ هاهنا نكتة ، إن أنت تأمّلتها تأمّل المُتثبّت ، ونظرت فيها نظر المُتأنّي ، رجوت أن يحسن ظنّك ، وأن تنشط للإصغاء إلى ما أورده عليك ، وهي : إنّا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا : لولا أنّهم حين سمعوا القرآن ، وحين تحدّوا إلى معارضته ، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قطّ مِثله ، وأنّهم قد رازوا أنفسهم فأحسّوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه ، لكان محالاً أن يدّعوا معارضته وقد تحدّوا إليه ، وقرعوا فيه ، وطولبوا به ، وأن يتعرّضوا لشبا الأسنّة ويقتحموا موارد الموت .

فقيل لنا : قد سمعنا ما قلتم ، فخبّرونا عنهم ، عمّاذا عجزوا ، أَعَن معانٍ من دقة معانيه وحسنها وصحّتها في العقول ؟ أم عن ألفاظ مِثل ألفاظه ؟ فإن قلتم : عن الألفاظ ، فماذا أَعجزهم من اللفظ ، أم بهرهم منه ؟

فقلنا : أَعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نَظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كلّ مثل ، ومساق كلّ خبر ، وصورة كلّ عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كلّ حجّة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنّهم تأمّلوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها ، أو يَرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتّساقاً بَهر العقول ، وأَعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم لو حكّ بيافوخه السماء موضع طمع حتّى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول ، وخلدت القُروم فلم تملك أن تصول (٧) .

ويُعقّب ذلك بأنّ هذه كانت دلائل إعجاز القرآن ، ومزايا ظهرت في نَظمه وسياقه ، بَهرت العرب الأوائل ، فهل ينبغي للفتى الذكي العاقل أن يكون مُقلّداً في ذلك ؟ أم يكون باحثاً ومتتبّعاً كي يعلم ذلك بيقين ؟ ومِن ثَمّ وَضع كتابه الحاضر (دلائل الإعجاز) ليَدلّ الناشدينَ على ضالّتهم ، ويضع يدهم على مواقع الإعجاز من القرآن ، ويدعم مُدّعاه في ذلك بالحجّة والبرهان ، والرائد لا يُكذِّب أهله ، قال : وبذلك قد قطعتُ عذرَ المتهاون ، ودللت على ما أضاع من حظّه ، وهدايته لرشده (٨) .

وقال ـ في رسالته (الشافية) : كيف يجوز أن يظهر في صميم العرب وفي مِثل قريش ذوي الأَنفس الأبيّة والهِمم العليّة والأَنفة والحميّة مَن يدّعي النبوّة ويقول : وحجّتي أنّ الله قد أنزل عليّ كتاباً تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلاّ أنّكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سورٍ منه ولا بسورة واحدة ، ولو جَهدتم جهدَكم واجتمع معكم الجنّ والإنس ، ثُمّ لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبيّنوا سَرَفه في دعواه ، لو كان ممكناً لهم ، وقد بلغ بهم الغيظ من مقالته حدّاً تركوا معه أحلامهم وخرجوا عن طاعة عقولهم ، حتّى واجهوه بكلّ قبيح وَلَقوه بكلّ أذىً ومكروه ووقفوا له بكلّ طريق .

وهل سُمع قطّ بذي عقل استطاع أن يخرس خصمه بكلمة يجيبه بها ، فيترك ذلك إلى أُمور ينسب معها إلى ضيق الذَرع ، وأنّه مغلوب قد أَعوزته الحيلة وعزّ عليه المَخلص ؟ وهل مِثل هذا إلاّ مِثل رجل عَرض له خصم فادّعى عليه دعوى خطيرة وأقام على دعواه بيّنةً ، وكان عند المدّعى عليه ما يُبطل تلك البيّنة أو يُعارضها ، فيترك إظهار ذلك ويضرب عنه الصفح جملةً ، ليصير الحال بينهما إلى جِدال عنيف وإخطار بالمُهج والنفوس ؟ قال : هذه شهادة الأحوال ، وأمّا شهادة الأقوال فكثيرة .

ثمّ قال : في وجه التحدّي . : لم يكن التحدّي إلى أن يُعبّروا عن معاني القرآن أنفسها وبأعيانها بلفظ يُشبه لفظه ونَظم يوازي نظمه ، هذا تقدير باطل ، فإنّ التحدّي كان إلى أن يجيئوا ، في أيّ معنى شاءوا من المعاني ، بنَظم يبلغ نظم القرآن ، في الشرف أو يقرُب منه ، يدلّ على ذلك قوله تعالى : {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود : ١٣] أي مِثله في النظم ، وليكن المعنى مُفترى لِما قلتم ، فلا إلى المعنى دعيتم ، ولكن إلى النظم ... .

قال : ويجزم القول بأنّهم تحدّوا إلى أن يجيئوا في أيّ معنى أرادوا مطلقاً غير مقيّد ، وموسّعاً عليهم غير مضيّق ، بما يشبه نظم القرآن أن يقرب من ذلك (١١) .

٤ . رأي السكّاكي :

يرى أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن علي السكّاكي . صاحب (مفتاح العلوم) (توفّي سنة ٥٦٧ هـ) . أنّ الإعجاز في القرآن أمرٌ يُمكن دركه ولا يمكن وصفه ، والمَدرك هو الذوق ، الحاصل من ممارسة عِلمَي الفصاحة والبلاغة وطول خدمتهما لا غير ، فقد جعل للبلاغة طرفينِ ، أعلى وأسفل وبينهما مراتب لا تُحصى ، والدرجة السُفلى هي التي إذا هبط الكلام عنها شيئاً التَحق بأصوات الحيوانات ، ثُمّ تتزايد درجةً درجةً متصاعدة ، حتّى تبلغ قمّتها وهو حدّ الإعجاز ، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه ، فقد جعل من الدرجة القصوى وما يقرب منها كليهما مِن حدّ الإعجاز .

ثُمّ قال بشأن الإعجاز : واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب ، يُدرك ولا يُمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرك ولا يُمكن وصفها ، وكالمَلاحة ، ومَدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلاّ ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذينِ العِلمَينِ (المعاني والبيان) .

ثمّ أخذ في تحديد البلاغة وإماطة اللثام عن وجوهها المُحتجبة ، وكذا الفصاحة بقسميها اللفظيّ والمعنويّ ، وضرب لذلك مثلاً بآية {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} [هود : ٤٤] وبيان جهاتها الأربع من جهتي المعاني والبيان ، وهما مَرجعا البلاغة ، ومِن جهتي الفصاحة المعنوية واللفظية ، وأسهب في الكلام عن ذلك ، وقال أخيراً : ولله دَرّ التنزيل ، لا يتأمّل العالم آية من آياته إلاّ أدرك لطائف لا تسع الحصر (١٢) .

وغرضه من ذلك : أنّ لحدّ الإعجاز ذروةً لا يبلغها الوصف ، ولكن يُمكن فهمها ودرك سَنامها ؛ بسبب الإحاطة بأسرار هذين العِلمَينِ ، فهي حقيقة تُدرك ولا توصف .

٥ ـ رأي الراغب الأصفهاني :

لأبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الأصفهاني (توفّي سنة ٥٠٢ هـ) ـ صاحب كتاب (المفردات) ـ رأي في إعجاز القرآن يخصّه ، إنّه يرى من الإعجاز قائماً بسبكه الخاصّ الذي لم يألفه العرب لحدّ ذاك ، فلا هو نثر كنثرهم المعهود ؛ لأنّ فيه الوزن والقافية وأجراس النغم ، ولا هو شعر ؛ لأنّه لم يجرِ مجرى سائر أشعار العرب ولا على أوزانها المعروفة وإن كانت له خاصّية الشعر من التأثير في النفس بلحنه الشعريّ النغميّ الغريب .

قال ـ بعد كلام له في وصف إعجاز القرآن قدّمناه آنفاً ـ :

وهذه الجملة المذكورة ، وإن كانت دالّةً على كون القرآن مُعجزاً ، فليس بمقنع إلاّ بتبيين فصلَينِ :

أحدهما : أن يُبيّن ما الذي هو مُعجز : اللفظ أم المعنى أم النظم ؟ أم ثلاثتها ؟ فإنّ كلّ كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة .

والثاني : أنّ المُعجز هو ما كان نوعه غير داخل تحت الإمكان ، كإحياء الموتى وإبداع الأجسام .

فأمّا ما كان نوعه مقدوراً ، فمحلّه محلّ الأفضل ، وما كان من باب الأفضل في النوع فإنّه لا يحسم نسبة ما دونه إليه ، وإن تباعدت النسبية حتّى صارت جزءً مِن ألف ، فإن النجّار الحاذق وإن لم يُبلغ شَأوُه لا يكون مُعجزاً إذا استطاع غيره جنسَ فِعْلِه ، فنقول وبالله التوفيق :

إنّ الإعجاز في القرآن على وجهين : أحدهما إعجاز متعلّق بفصاحته ، والثاني بصرف الناس عن معارضته .

فأمّا الإعجاز المتعلّق بالفصاحة : فليس يتعلّق ذلك بعنصريه الذي هو اللفظ والمعنى ؛ وذاك أنّ ألفاظه ألفاظهم ، ولذلك قال تعالى : {قُرْآنًا عَرَبِيًّا } [يوسف : ٢] وقال : {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ } [البقرة : ١، ٢] تنبيهاً أن هذا الكتاب مُركّب من هذه الحروف التي هي مادّة الكلام .

ولا يتعلّق أيضاً بمعانيه ، فإن كثيراً منها موجود في (الكتب المتقدّمة) ولذلك قال تعالى : { وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء : ١٩٦] وقال : {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [طه : ١٣٣] ، وما هو مُعجز فيه من جهة المعنى كالإخبار بالغيب فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خبراً بالغيب ، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره ، وسواء كان مورداً بالفارسيّة أو بالعربيّة أو بلغة أُخرى ، أو بإشارة أو بعبارة .

فإذا بالنَظم المخصوص صار القرآن قرآناً ، كما أنّه بالنَظم المخصوص صار الشعر شعراً ، والخطبة خطبةً .

فالنظم صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصراه ، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره ، كالخاتم والقُرط والخَلخال اختلفت أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضّة ، فإذا ثَبت هذا ثبت أنّ الإعجاز المختصّ بالقرآن متعلّق بالنظم المخصوص .

وبيان كونه مُعجزاً هو أن نُبيّن نظم الكلام ، ثُمّ نُبيّن أنّ هذا النظم مخالف لنظم سائره ، فنقول : لتأليف الكلام خمس مراتب :

الأُولى : النظم : وهو ضمّ حروف التهجّي بعضها إلى بعض ، حتّى تتركّب منها الكلمات الثلاث : الاسم والفعل والحرف .

والثانية : أن يُؤلّف بعض ذلك مع بعض حتّى تتركب منها الجمل المفيدة وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم ، وقضاء حوائجهم ، ويُقال له : المنثور من الكلام .

والثالثة : أن يضمّ بعض ذلك إلى بعض ضمّاً له مبادٍ ومقاطع ومداخل ومخارج ، ويُقال له : المنظوم .

والرابعة : أن يُجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له : المُسجّع .

والخامسة : أن يُجعل له مع ذلك وزن مخصوص ، ويُقال له : الشعر ، وقد انتهى .

وبالحقّ صار كذلك ، فإنّ الكلام إمّا منثور فقط ، أو مع النثر نظم ، أو مع النظم سجع ، أو مع السجع وزن

والمنظوم : إمّا محاورة ويُقال له : الخطابة ، أو مكاتبة ويقال لها : الرسالة ، وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة ، ولكلّ من ذلك نظم مخصوص .

والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنَظم ليس هو نظم شيء منها ، بدلالة أنّه لا يصح أن يُقال : (القرآن رسالة ، أو خطابة ، أو شعر ، كما يَصحّ أن يُقال : هو كلام ، ومَن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النَظم ، ولهذا قال تعالى : {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت : ٤١، ٤٢] تنبيهاً أنّ تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأخر .

فإن قيل : ولِمَ لمْ يُبلغ بنظم القرآن الوزن الذي هو الشعر ، وقد عُلم أنّ للموزون من الكلام مرتبةً أعلى مِن مرتبة المنظوم غير الموزون ؛ إذ كلّ موزون منظوم وليس كلّ منظوم موزوناً ؟

قيل : إنما جُنّب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصّية في الشعر منافية للحِكمة الإلهية ، فإنّ القرآن هو مقرّ الصدق ، ومعدن الحقّ ، وقصوى الشاعر : تصوير الباطل في صورة الحقّ ، وتجاوز الحدّ في المدح والذمّ دون استعمال الحقّ في تحرّي الصدق ، حتّى أنّ الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرّى الحقّ إلاّ بالعَرض ، ولهذا

يُقال : مَن كان قوّته الخياليّة فيه أكثر كان على قَرض الشعر أقدر ، ومَن كانت قوّته العاقلة فيه أكثر كان في قرضه أقصر .

ولأجل كون الشعر مقرّ الكذب ، نزّه الله نبيّه (صلّى الله عليه وآله) عنه ؛ لِما كان مُرشّحاً لصدق المَقال ، وواسطة بين الله وبين العباد ، فقال تعالى : {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس : ٦٩] فنفى ابتغاءه له ، وقال : {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ} [الحاقة : ٤١] أي : ليس بقول كاذب ، ولم يعنِ أن ذلك ليس بشعر ، فإنّ وزن الشعر أَظهر مِن أن يشتبه عليهم حتّى يحتاج إلى أن ينفي عنه . ولأجل شهرة الشعر بالكذب سُميّ أصحاب البراهين الأقيسة المؤدّية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعريّة ، وما وقع في القرآن من ألفاظ مُتّزنة فذلك بحسب ما يقع في الكلام على سبيل العَرض بالاتّفاق ، وقد تكلّم الناس فيه .

وأمّا الإعجاز المتعلّق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً إذا اعتُبر ؛ وذلك أنّه ما مِن صناعة ولا فِعلة من الأفعال محمودةً كانت أو مذمومةً إلاّ وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتّفاقات إلهية ، بدلالة أنّ الواحد يُؤثر حِرفة من الحِرف فينشرح صدره بملابستها وتطيعه قُواه في مزاولتها ، فيقبلها باتّساع قلب ، ويتعاطاها بانشراح صدر ، وقد تَضمّن ذلك قوله تعالى {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة : ٤٨] وقول النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : (اعملوا فكلٌّ مُيسّر لِما خُلق له) (١٤) . فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كلّ وادٍ من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن ، وعجزهم عن الإتيان بمِثله ، وليس تهتزّ غرائزهم البتة للتصدّي لمعارضته ، لم يخفَ على ذي لبّ أنّ صارفاً إلهياً يَصرفهم عن ذلك ، وأيّ إعجاز أعظم مِن أن تكون كافّة البلغاء مُخيّرة في الظاهر أن يُعارضوه ، ومُجبرة في الباطن عن ذلك ، وما أليقهم بإنشاد ما قال أبو تمام :

فإنْ نكُ أُهمِلنا فَأَضعِف بِسَعينا وإنْ نَكُ أُجبِرنا فَفيمَ نُتَعتِعُ

٦ ـ رأي الإمام الرازي :

ولأبي عبد الله محمّد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (توفّي سنة ٦٠٦هـ) ـ المفسّر المتكلّم الأُصولي الكبير ـ رأي في إعجاز القرآن طريف ، وهو جَمْعه بين أُمور شتّى ، كانت تستدعي هبوطاً في فصاحة الكلام ، لو كان أحد مِن البشر حاول القيام بها أجمع ، لولا أنّ القرآن كلام الله الخارق لَمألوف الناس ، فقد جمع بين أفنان الكلام ، ومع ذلك فقد بلغ الغاية في الفصاحة ، وتسنّم الذروة من البلاغة ، وهذا أمرٌ عجيب !

قال : اعلم أنّ كونه (القرآن) معجزاً يُمكن بيانه من طريقينِ :

(الأوّل) أن يقال : إنّ هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة : إمّا أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء ، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدرٍ لا ينقض العادة ، أو زائداً عليه بقدرٍ ينقض ، والقسمان الأوّلان باطلان فتعيّن الثالث .

وإنّما قلنا : إنّهما باطلان ؛ لأنّه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمِثل سورة منه إمّا مجتمعينَ أو منفردينَ ، فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحُكّام يُزيلون الشبهة ، وذلك نهاية في الاحتجاج ؛ لأنّهم كانوا في معرفة اللغة والاطّلاع على قوانين الفصاحة في الغاية ، وكانوا في مَحبّة إبطال أمره في الغاية ، حتّى بذلوا النفوس والأموال ، وارتكبوا ضروب المَهالك والمِحن ، وكانوا في الحميّة والأَنَفة على حدّ لا يقبلون الحقّ فكيف الباطل ! ، وكلّ ذلك يُوجب الإتيان بما يقدح في قوله ، والمعارضة أقوى القوادح ، فلمّا لم يأتوا بها عِلمنا عَجزهم عنها ، فثبت أنّ القرآن لا يُماثل قولهم ، وأنّ التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً ، فهو إذاً تفاوت ناقض للعادة ، فوجب أن يكون معجزاً .

واعلم أنّه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نُقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنّه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها ، فدلّ ذلك على كونه معجزاً .

أحدها : أنّ فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات ، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو مَلِك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة ، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء ، فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتّفقت العرب عليها في كلامهم .

وثانيها : أنّه تعالى راعى فيه طريقةَ الصدق وتنزّه عن الكذب في جميعه ، وكلّ شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نَزَل شعره ولم يكن جيّداً ، أَلا ترى أنّ لبيد بن ربيعة وحسّان بن ثابت لمّا أَسلما نَزَل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي ، وأنّ الله تعالى مع ما تنزّه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحاً كما ترى .

وثالثها : أنّ الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنّما يتّفق في القصيدة في البيت والبيتينِ والباقي لا يكون كذلك ، وليس كذلك القرآن ؛ لأنّه كلّه فصيح بحيث يعجز الخَلق عنه كما عجزوا عن جملته .

ورابعها : أنّ كلّ مَن قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنّه إذا كرّره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأَوّل ، وفي القرآن التّكرار الكثير ، ومع ذلك كلّ واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلاً .

وخامسها : أنّه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحثّ على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة ، وأمثالُ هذه الكلمات تُوجب تقليل الفصاحة .

وسادسها : أنّهم قالوا في شعر امرئ القيس : يَحسن عند الطرب وذِكر النساء وصِفة الخَيل ، وشِعر النابغة عند الخوف ، وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخَمر ، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء ، وبالجملة فكلّ شاعر يحسن كلامه في فنّ ، فإنّه يَضعف كلامه في غير ذلك الفنّ ، أمّا القرآن فإنّه جاء فصيحاً في كلّ الفنون على غاية الفصاحة .

أَلا ترى أنّه سبحانه وتعالى قال في الترغيب : {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة : ١٧] وقال تعالى : {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ} [الزخرف : ٧١].

وقال في الترهيب : {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ } [الإسراء : ٦٨] ، وقال : { أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} [الملك : ١٦] ، وقال : {كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [إبراهيم : ١٥ – ١٧] .

وقال في الزجر مالا يبلغه وَهْم البشر ، وهو قوله : {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا} [العنكبوت : ٤٠] .

وقال في الوعظ ما لا مَزيد عليه {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ} [الشعراء : ٢٠٥].

وقال في الإلهيّات : {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [الرعد : ٨] .

وسابعها : أنّ القرآن أصل العلوم كلّها ، فعِلم الكلام كلّه في القرآن ، وعِلم الفقه كلّه مأخوذ من القرآن ، وكذلك علم أُصول الفقه ، وعلم النحو واللغة ، وعلم الزهد في الدنيا ، وأخبار الآخرة ، واستعمال مكارم الأخلاق .

ومَن تأمّل كتابنا في دلائل الإعجاز (١٦) علم أنّ القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى

(الطريق الثاني) أن نقول : إنّ القرآن لا يخلو إمّا أن يُقال إنّه كان بالغاً في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز ، أو لم يكن كذلك . فإن كان الأوّل ثبت أنّه معجز ، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، فعدم إتيانهم بالمعارضة ، مع كون المعارضة ممكنةً ، ومع توفّر دواعيهم على الإتيان بها أَمر خارق للعادة ، فكان ذلك معجزاً ، فثبت أنّ القرآن معجز على جميع الوجوه ، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب (١٧) .

وكلامه هذا الأخير لعلّه ترجيح للقول بالصِّرفة !